الطوطم

قصة بقلم غانم الدباغ

امسك بيدها حين بدأت أمه تتوضأ لصلاة العصر ، وبخطى مختلسة قادها نحو السرداب المهجور عن طريق المطبخ . مانعت سعدية، وقالت انه سيسمع صلصلة الجناجل الصغيرة في ضفائرها ، فأمها تقول انه يسمعها من بعيد ... انصاعت حين دفع الباب الخشبي ذي المسامير الكبيرة ، يتدفق منه عطن الاماكن الرطبة ، ولئلا تزلق ، حملت قبقابها الصغير بيد ، واتكأت على كتفه بالاخرى ..

ثبتت أصابع قدميها بأطراف الدرج المتآكل ، تلكمها لزوجة .. ارضه الدبقة ... تدحرجت عند اول السلم ، وأفعت على عجيزتها فوق الدرجة الاخيرة ... فصرخت تناديه بصوت مرعوب ، في حين وصل هو الى الرواق قبلها ..

عند الطاقة المسدودة الا من نافذة صغيرة تغرق في الظلام ، عاد يقودها خلال العتمة قائلا :

ـ لا تخافي .. الدنيا نهار ... وهو لا يظهر الا في الليل ..

اندقت بالارض امام الطاقة ، وأمسكت بكمه بجرجره ، فأبى الرجوع ، تقطعت تحتهما علبة صفيح صدئة ، فأجفلت وهمت بالصراخ ، لكنها غرست اصابعها في رسغه والرعدة تملأها ... على خيوط الضوء الشاحبة تخترق مجال النافذة السقفية رأى فتحة فمها المرتجفة ، هزها وقد خربشت بقربه حشرة تتسلق الصفيحة ثم تنزلق عنها ...

صدها عن الرجوع ممسكا بضفيرتها ، فأذعنت وخطت بحذر وفي بصرها تنطبع عتمة الطاقة السوداء ترقص امامها ، نقاطا دامية ... تبعته بأستكانة وهي تغمض عينا وتفتح أخرى ...

اجتازا البئر المعطلة تحت قوس رخامية تتدلى منها خيوط العناكب وتنسد فوهتها العليا في حوش الدار برخامة بيضاء وتتدلى فوقه بكرة تلتف عليها جذاذة حبل قصير ..

تناول حصاة ورماها في البئر ، ثم أنصت لصداها المكتوم وهو يقفز مبتعدا بسعدية .

زال رعبها تحت ضوء النافذة ، وقهر هو خوفه بضحكة طفولية .

هتف وهو يقتعد برميلا مليئا بالحنطة :

ـ هـ ..... ـا ، لقد وصلنا .. كيف تنزل أمي هنا في الليل .. ؟

قالت وهي ترتمي على تخت خشبي عتيق نضدت عليه أغطية ووسائد متروكة برزت منها حشاياها :

ـ الكبار لا يخافون ... أمي ايضا لا تخاف من سردابنا ..

استمرت تحدق باتجاه البئر :

ـ هل خرج منه شيء ، حين رميت الحصاة .. ؟

هز رأسه ينفي ، ودست هي وجهها بين حوافي الاغطية ، فانبثق صوتها مخنوقا :

ـ أنا رأيته ...

ـ انت تكذبين ... لقد كنت مغمضة ، حين مرقت من امامه...

نزعت وجهها من تحت الاغطية ، والتفتت تقول :

ـ والله العظيم رأيته ... وكما وصفته جدتي ...

قال وهو يهبط من البرميل :

ـ لكني أنا رميت الحصاة .. لماذا لم يخرج عليّ ..؟ قولي اذن كيف كان شكله ..؟

رفعت رأسها ، وصاقبت كفيها الى صدغيها ، تؤشر بأصبعيها :

ـ له قرنان كبيران ... أحدهما مكسور ...

سألها :

ـ وهل عينه حمراء واعور ..؟

دست رأسها تحت الغطاء :

ـ كفى ، كفى ... لنخرج قبل ان يطلع علينا ...

لكزها في خاصرتها :

ـ أخرجي لوحدك ...

هزت رأسها بتوسل :

ـ لا ... نطلع معا ...

ـ لا ... أخرجي أنت اولا اذا كنت شاطرة ... واجتازي لوحدك الطاقة السوداء ...

ـ أنت ولد ، ولا تخاف ...

ـ اذا كنت قد رأيته ، فكيف تخافين ؟ لا .. انه صديقنا نحن الاولاد ... هو يكره البنات ... أمي قالت انه يسمع صوت الاجراس الصغيرة في ضفائركن فيبتعد ...

قالت وهي تمسك بالجناجل الصغيرة :

ـ سأقف هكذا امام الطاقة .....

قفز امامها مشيرا الى الطاقة :

ـ تقفين امام الطاقة ..؟ أنت ..؟

ـ أمي تقول ... البنات يبقين أحسن من الاولاد حتى يتزوجن..

ـ وانا لم اتزوج ، فكيف اكون رديئا ..؟

اجابت وهي تتفحص قدميها المتربتين :

ـ هكذا تقول أمي ..
تساءل وهو ينظر عبر العتمة ، الى الطاقة السوداء :
ـ هل هو الذي جعلنا بهذه الرداءة .. وصنعكن طيبات ..؟
ـ لا .... أمي وأبي ... وأمك وأبوك أرادوا هذا ..
قال متطلعا نحو النافذة السقفية المجصصة حتى منتصفها :
ـ انا أكره أبي ... لكنني أخافه ..
قالت سعدية ووجهها يستعيد صفاءه :
ـ لا .... هذا حرام .... أبوك هو الذي صنعك ...
صمت ، ثم رد وهو غير مقتنع :
ـ ومن صنع أبي ..؟
ـ هـو ...
ـ من ...؟ ذاك الذي وراء الطاقة السوداء ..؟
هزته بغضب :
ـ لا ... أنت تكفر ... ذاك شرير ويعذب الناس ... الـذي صنعنا ليس هنا ..
ـ أين هو ..؟
أشارت بأصبعها نحو السقف :
هناك ... فوق .. في السماء .. حين مات جدي رفعوه اليه..
أعاد التحديق نحو النافذة السوداء ، وخطا قليلا باتجاه البئر ، ثم سألها مشيرا اليه :
ـ من تتصورين يسكن هنا ..؟
قالت بهمس :
ـ هـ ... ص انهم الملائكة ...
سألها :
ـ أتعرفين أشكالهم .؟
قالت وعيناها نحو البئر :
ـ بيض ... بيض وشعورهم طويلة كالبنات !.
هز رأسه :
ـ لكن البئر تخرج منها خفافيش سود ...
وضعت اصبعها على فمها تحذره :
ـ هش ... ش .. ش .. انهم يسمعوننـا ... ففي الليـل يتحولون الى خفافيش سود ، انهم لا يسكنون نفس البئر ، بل تحت الارض ... ألا ترى كيف تمصمص لهم أمك حين تسكب الماء الحار..؟
ـ لماذا ..؟
ـ ليبتعدوا عن الماء ولا يحترقوا ..
ـ لكنك تقولين ان اشكالهم بيضاء ..؟
سكتت لحظة ... حدقت في اتجاه البئر .. ثم قالت :
ـ هـ .... ـا .. انهم يتحولون الى طيور سوداء حتى لا نراهم (ثم بصوت خافت) انهم يسمعوننا الآن ... وهم يراقبون أعمالنـا ويكتبون كل ذلك في دفاتر كبيرة ويقدمونها اليه ..
ترامت فوفهم عبر السقف خطى الام ، تنتقل في أرجاء الـدار ، قال احمد :
ـ أنهت أمي صلاتها ..
أضافت سعدية :
ـ معلمة الدين ، قالت امس .. نحن يجب ان نصلي ...
قال أحمد :
ـ البنات لا يصلين . ذهبت مرة مع أبي الى الجامـع ، لـم أشاهد بنتـا ..
ردت :
ـ يصلين في البيت .. أنا سأصلي حينما أكبر ..
لملم بوزه معترضا :
ـ وكيف تصلين ..؟ انت ستتزوجين عندما تكبرين ..؟
أجابت : ـ
ـ واذا تزوجت ...؟
ـ نصبحين نجسة ..
برطمت ، وهي تمرر اصبعها بانحدار مع صفحة خدها :
ـ أخاي ... أنت نجس ...
هم بلطمها ، فابتعدت زحفا عنه ، وأضافت :
ـ والله أنت نجس .. أنت تبول واقفا ...
أشار الى فخذيها وقد تعرياً خلال تقهقرها ... فابتعدت أكثر :
ـ أنت ليس لك مثلي ..
زمت بوزها وأجابت :
ـ سيصبح عندي مثلك حينما أتزوج ...
اقترب منها مهددا ، يقول :
ـ أنت (أدب سز) ... سأذبحك اذا تزوجت ...
وفي تراجعها المستمر ، أوشكت ان تنقلب من حافـة الدكـة العريضة على باحة الرواق المعتم ، فامسكها وقادهـا الى الـرواق المضـيء ...
مهد لها مكانا على التخت ، وقال وهو يربت عـلى خدهـا ويسترضيهـا :
ـ لا تزعلي ... تعالي نلعب عريس وعروسة ...
شهقت وهي تعض بنانها :
ـ عيب .. أنا ما زلت صغيرة ... وأمك فوق ...
أجابها وهو يحتضنها :
ـ ليس تماما .. نلعب فقط ..
استجابت ... فجلست متربعة وأسبلت عينيها تقلـد جلسـة العروس ، وتركته يتحسس فخذيها ...
قالت :
ـ أسمع ... ليس هكذا ..... هكذا ....
.....
قبلها ، ثم انفك عنها يأمرها بالنهوض واسبال ثوبها ، وسألته :
ـ وهل أنا زوجتك الآن ....؟
ـ نعم وستلدين بعد شهر ..
ـ لا .. أنت لا تعرف ... أمي تستغرق وقتا أطول عندما تلد لي أخا جديدا ..
فكر وقال متخابثا :
ـ سنتزوج غدا ايضا ، حتى يأتي الولد سريعا ...
قالت :
ـ اذن تعال نتزوج مرة أخرى ...
جرها بعنف الى الارض ، وقال صارخا في وجهها :
ـ لا ... حين نريد الزواج ، أنا أطلب ذلك .. تعالي نصعد ..
هزته من كتفيه ، تسالـه :
ـ احمد ، هل نحكي لأهلنا ...؟
ـ لا يا حمارة .. يضربونك ..
هزشت رأسها ، وامسكت بضفيرتيها لتسكت الجناجل الصغيرة عن الخشخشة
ـ وبطني .. انها سترتفع كبطن أمي ..؟ وهو سيرانا ...
قال ، وهما يتحسسان طريقهما عبر الرواق المظلم :
ـ لا ... انه يحبنا نحن الاولاد .. أمي قالت ان اخي الذي مات صغيرا سيذهب الى الجنة ... ان فيها ورودا كثـيرة ، ورمانـا

وتفاحـا ...

سكت ثم اضاف :

ـ وانت خطيبني ... الم تسمعي امي تقول ذلك لامك ..؟

قالـت :

ـ لماذا يتزوجون هم كل يوم ... ونحن نخاف ..؟

اجابهـا :

ـ عندما نكبر ، ويصبح عندنا فلوس مثلهم ...

سالتـه :

ـ ولكن قطتنا تتزوج دائما .. كل يوم اراها مع القط عـلى الجدار ... الم تشاهدها ؟

قبل ان يجيبها ، ارتفع صوت الام تنادي احمد ، فضغط كتفهـا يهمس :

ـ لا تتكلمي .. لئلا تحس بمكاننا .. ستخرج بعد قليـل ، ثم تذهبين انت الى بيتكم عبر السطح .....

. . . . . .

عصر يوم ... وسعدية تلعب بدميتها في زاوية بسطح المنـزل ، اطل عليها احمد عبر سور سطحهم :

ـ سعدية .. الا تلعبين ..؟

ـ ايـن ... ؟

ـ عندنا .. في السرداب ..

طفى على وجهها قلق ساذج ، فاجابت :

ـ لا .... تعال انت هنا .. في سطحنا ..

قفز الحاجز الواطيء اليها .. وهم باحتضانها ، فنفرت تلتصق بالجـدار :

ـ لا ... سيرانا ، فنحن تحت السماء ، وانا خائفـة ... ان بطني تنتفخ كبطن القطة ...

وكشفت عنها ، فحدق في صرتها ... وسالها :

ـ من هنا سيخرج الطفل ..؟

قالت وهي تسبل ثوبها :

ـ لا .. من هنـا ..

واشارت تدلـه ...

مرت القطة تتبختر امامهما فوق الجدار ، فنبهته :

ـ انظر بطنها .!

قال احمد :

ـ لكننا لم نلعب سوى مرة واحدة ..

ـ ان الله سيرمينا في النار ...

ـ لمـاذا ..؟

ـ لاننا تزوجنا صغارا ، واهلنا لا يعلمون ..

ـ والقطة ..؟

ـ انها امراة كبيرة ..

ـ ولماذا لا يرميها الله في النار ..؟

ـ انها حيوان ولا تفهم مثلنا ..

حدق بالقطة التي بدات تقترب منهما وتهرهر بالفة ، وتتمسـح بسعدية وتدور حولها رافعة ذيلها ، قال وهو يمط حروف كلماته :

ـ اسمعـ ..... ـي ، تعـالـ ..... ـي نهرس بطنها ..

ـ ... . ؟

ـ هـ..... ـا ..؟ ندعسها حتى لا تنتفخ بطنها اكثر وتلد..

ـ وما علينـا ..؟

ـ لان ... لاننا اذا دعسناها فلن تكبر بطنك ..

ـ لكن هذا حـرام .. والله سيرمينا في النار ...

ـ لا .. انه صديقي ، ولا يرميني في النـار ...

أهوى ممسكا بالقطة ، وقفز الجدار بها وقد استكانت لقبضتـه والتفت يستحث سعدية على اللحاق بـه :

ـ اسرعي .. اسرعي قبل ان تعود امي ...

ادركته عند رواق المطبخ الموصل الى السرداب المهجور ، سالته :

ـ هل سنلعب عريس وعروسة ..؟ انا خائفة ..

ـ لا تخافي .. الم اقل لك انه صديقي ..؟

ـ والقطـة ..؟

ـ القطة ..؟ لانها بنت مثلك ، فهي تخاف منه ، سادعك بطنها حتى يسقط اولادها .

يوما ضرب أبي أمي ضربا شديدا ، فوقع من بطنها ولد ميت ...

هبطا السلالم المتاكلة ، وكانت القطة التي بدات تحس غرابـة المكان الذي تقاد اليه ، تخمش اصابع احمد المفروزة في جسمهـا وتموء بتوسل ..

مرقت سعدية أمام الطاقة المعتمة وهي تردد :

ـ يـا مـامـا ... !

ثم اعتلت دكة الرواق المضيء ، تصفق وتغتصب ضحكة انتصارها عـلى خوفهـا :

ـ هـ ..... ـي وصلت قبلـك ...

رفع احمد علبة الصفيح الصدئة ، وحشر القطة داخلها ، ولحق بسعدية ... وأرضية السرداب المرصوفة ببقايا الحجارة المهشمة قد اكتست مع الايام قشرة سوداء أعطتها لون الملاط ، لكنهـا هشت لا تستعصي حتى على النبش بالاظافر ، كما ابقى انقطاع النور عنهـا ، سطحها لزجا مدبقـا ...

راحت ترقبه وهو يتناول سفودا حديديا مما يستعمل في الشواء، فيحفر بطرفه الدقيق نقرة في الارض ، جالسا فوق الصفيحة الصدئة التي كفاها على القطة وهي تموء باحتجاج مرير متواصل ..

افرغ الحفرة من التراب ، ونهض عن علبة الصفيح يزحزحهـا لتستقر فوقها والقطة تنشحط معها ..

سالتـه :

ـ وكيف (سنفعص) بطنهـا ..؟

قال وهو يضغط العلبة ويداورها فوق الحفرة ، مهيلا حولهـا التـراب :

ـ حتى لا تخمشنا .... (فسنفعصها) وهي داخل العلبة ..

ثم ثبت طرف السفود الدقيق فوق العلبة ، يدقه بحصاة كبيرة مما يمتلىء به السرداب ، فاخترق سطحها ونفذ الى جسم القطة التي اختنق مواؤها المعذب ..

هتفـا :

ـ هـ ...ـى ... هـ .... ـى ...لقد مات اولادها الآن..

وكشفت سعدية عن بطنها ، وهي تقفز :

ـ هـ .... ـى لقد فشت بطني ..

انتشرت بعد ايام في الدار ، رائحة ، بدات أم احمد تتشممهـا

بتقزز وباحساس ربة بيت يميز انفها بين الروائح التي تنتشر من المطبخ او من البالوعة ، او من المرحاض في السطح ... وحتى العطن الذي ينبعث من نوافذ السرداب المهجور .. لكن هذه الرائحة ..؟ أتكون لحما متفسخا ..؟.. رمة دجاجة قتلها وباء ..؟ كلبا نافقا ..؟ وتتطلع كل يوم الى ركن القمامة في الزقاق فلا تجد اثرا لكل هذا ... فالقمامة ترفع كل يوم ... والرائحة ما زالت تملأ ارجاء الدار ....

حاورت زوجها ، فقال :

ـ لاحظي الولد ... ربما يخاف الصعود الى المرحاض ليلا .. ابحثي في زوايا الدار ..

ـ انها ليست رائحة غائط ..

ـ مهما كانت .. اساليه ، والا ضربته ..

استجوبت الصبي ، فبددت اقواله شكوكها ... لكن الرائحة كانت تزداد نفاذا ، وتمكنت من انفها يوما وهي تتناول حاجة سقطت منها عند نافذة السرداب المجصصة ...

هتفت صارخة:

ـ أوى ... انها من السرداب ..

ابتعدت تسد أنفها ، وتندب حظها الذي ابتلاها بهذه الدار الخربة ، وهرعت الى السرداب ، تتعوذ وتحوقل وتبسمل وتقرأ آية الكرسي... في نهاية الرواق المضيء رأت على ضوء النافذة الشاحب، كومة التراب ورأس السفود يخترق الصفيحة الصدئة ... تساءلت وهي تكتم أنفاسها متقززة :

ـ لاي شيء عساها تكون ..؟

ازاحت حفنات التراب المركومة جانبا ، وامسكت براس السفود تقلب به العلبة ، فبدت امامها جثة القطة المتورمة وقد تقولبت بشكل العلبة الاسطواني ...

حملت الرمة ، والقتها خارجا وهي تتمتم :

ـ هذا ما كانا يفعلانه ، هو وبنت العاهرة ..؟ كنت اقول مع نفسي ، ماذا جرى للقطة المسكينة ..؟

.....

قال احمد لزوجته سعدية في دارهما الجديدة بضاحية المدينة :

ـ لاحظي البنت ، فهي تلعب كثيرا مع ابن جيراننا ... لقد حل الربيع .. وبدأ موسم التناسل عند القطط ..

ابتسمت ، مشيرة الى بطنها المنتفخ :

ـ ولكن في اي سرداب سيخنقان القطة .؟

ـ هذا لا يهم ... قد يدفنانها في حديقة الدار .. لكن أتتصورينها تخاف منه كأمها ...؟

ضحكا .... هو في نشوة ، وهي في استغراق ....

واجابت من خلال ضحكتها ، تومىء الى جهاز التلفزيون امامهما :ـ

ـ أظنه ..... أظنه انتهى .....

بغداد — غانم الدباغ

صدر حديثا عن

دار الرائد العربي

للتأليف والترجمة والنشر

بيروت ـ لبنان ـ هاتف : ٢٤٥٧٧٨ ـ ص . ب : ٦٥٨٥

ـ اخلاق القرآن : للدكتور احمد الشرباصي

يبحث في الاخلاق التي يجب ان يتحلى بها المسلمون ، وقد افرد المؤلف لكل خلق بحثا مستقلا عرضه بشكل واف رائع بحيث امتاز الكتاب بالدقة في البحث والوضوح في الافكار وبجمال الاسلوب وقوته .

ـ صراع : للدكتور احمد الشرباصي

مسرحية تدور حول القتال بين الحق والباطل .. الحق الذي يتمسك به المسلمون ويدافعون عنه ، والباطل الذي يتبعه الذين تمسكوا بالحياة الدنيا وعرضها وظنوها كل شيء .

ـ الطريق : للاستاذ محمد الخطيب

مسرحية تدور احداثها حول النضال العنيف ، يقوم به رجال آمنوا بحقهم ورضوا بالطريق الموصلة اليه .. طريق القوة والعنف .. طريق الفداء والتضحية وتقديم الارواح فدى للوطن .

ـ فلسفة الحركة الوطنية التحررية : للاستاذ نسيب نمر

كتاب ايديولوجي وفلسفي يضع اسس الحركة الوطنية التحررية، ويناقش التحريفيين من القوميين السوريين والشيوعيين الكلاسيكيين وخروج روجيه غارودي عن اهم مرتكزات الاشتراكية العلمية وبروز صادق جلال العظم في « نقد الفكر الديني » مثاليا واضحا ، ويحدد الاطار المبدئي للارتباط بين المحتوى القومي والطبقي للثورة الفلسطينية .